

الفصل الثاني

عطاء الرجال وبيعتهم^(١)

هنالك تشابه عجيب بين التطور الاجتماعي للإنسان من ناحية وبين التطور
الزبولوجي من ناحية أخرى ، كما بينه دارون ؛ وهو تشابه لم يلاحظه أحد من قبل .
قد يكون من الخير أن أقدم لبحثي هذا بذكر بعض الملاحظات العامة حول
طريق الوصول إلى الحقائق العلمية ، فأقول إن من المعاني المشهورة أن معرفة شيء ما
معرفة كاملة مهما كان حقيراً تستلزم معرفة العالم كله . فلا يسقط عصفور إلى الأرض
إلا وتجد طريق الهجرة ، أو نظامنا التحالفي ، أو تاريخ أوروبا القديم ، ضمن الأسباب
غير المباشرة المؤدية إلى ذلك السقوط . يعني إذا غيرت طريق الهجرة ، أو غيرت نظامنا
التحالفي ، أو غيرت طبائع أسلافنا البدائيين ، فإن العالم كان يكون مختلفاً كل
الاختلاف عما هو عليه اليوم . وقد يكون من العناصر المتضمنة في ذلك الاختلاف
الآن يجد الطفل ، الذي قذف الحجر فأسقط العصفور ، نفسه مسامتا للعصفور في تلك
اللحظة العينة ، أو إذا كان مسامتاً له ، فقد لا يكون في حالة نفسية تسمح له بأن
يرمي العصفور بالحجر . ولكن ، على الرغم من أن هذا كله حق ، فإنه يكون من
الحماسة بمكان أن يتجاهل الباحث عن أسباب موت العصفور الغلام ، ولا يعتبره فاعلاً
مباشراً ، ويقول إن السبب الحقيقي هو النظام الائتلافي ، أو هجرة الجماعة السكتية إلى
الغرب ، أو طبيعة طريق الهجرة . وإذا ما جربنا على هذا النحو من التفكير ، فإنه يحق

(١) محاضرة ألقيت في جمعية التاريخ الطبيعي في هارفارد .

لنا أن نقول، عند ما نزل قدم صديق لنا بسبب الجليد المتكاثف على بابه فيسقط ميتا، إن موته تسبب عن تلك الحادثة المشثومة التي حدثت له من بضع شهور مضت، وهي أنه كان قد تعشى على مائدة ضمت ثلاثة عشر رجلا. إننى أعرف حادثة من هذه النوع؛ ويحق لى أن أقول، إذا ما شئت، إن السقوط على الجليد المتكاثف لم يكن مصادفة. وقد أقول « ليس هناك فى العالم من مصادفات »، وإن تاريخ العالم كله لى تضامن ويلتقى لىسبب هذا السقوط. وإذا تخلف شيء مما قد حصل، فإن السقوط كان لا يمكن أن يحدث فى ذلك الوقت وفى هذا المكان. وليس القول بإمكان الحدوث فى تلك الحالة إلا إنكارا لقانون السببية والمسببية فى العالم. فلم يكن الانزلاق السبب الحقيقى للموت، بل الحالات التى أدت إلى الانزلاق، - ومن بينها جلوسه من ستة أشهر مضت على مائدة كان هو الثالث عشر من أفرادها. ذلك كله هو السبب الحقيقى لموته فى ذلك العام.

ستظهر قريبا الناحية التى سأذكر الآن براهينها. ولقد كان بودى أن أقدم الحقيقة من غير جدل ومن غير مقاذعة. ولكن، من سوء الطالع، أننا لا ندرك تمام الإدراك مضمون القضية الصادقة حتى نعلم مضمون ما يناقضها من قضايا كاذبة. فالغلط ضرورى ليظهر الحقيقة على أحسن منوال، كما أن ظلام الجانب الخلقى ضرورى ليظهر صفاء الصورة وانضارتها. والغلط الذى سأأخذ آلة موصلة لإبراز ما يبدو لى صوابا يوجد فى فلسفة سبنسر Herbert Spencer ومريديه. ومشكلتنا هى: ما هى الأسباب التى تجعل الجماعات تتغير من عصر إلى عصر، - التى تجعل إنجلترا فى عهد الملكة آن Anne مختلفة كل الاختلاف عنها فى عهد الملكة اليبابات Elizabeth، أو التى تجعل كلية هارفارد Harvard اليوم تختلف عما كانت عليه من ثلاثين عاما مضت؟ سأجيب عن هذا السؤال بقولى نشأ الفرق عن الكثير المتراكم من تأثير

الأفراد ، مما يضربون من مثل ، مما يبتكرون ومما يقررون ويحكمون . ولكن مدرسة سبنسر تجيب بأن التغير مستقل عن الأفراد ولا يخضع لما يملون من إرادة : تنشأ التغيرات عن البيئة ، وعن الظروف والأحوال ، وعن الجغرافية الطبيعية ، وعما كان عليه الأسلاف من حالات ، وعن كل شيء في الحقيقة ، إلا عن الأفراد من زيد وعمرو .

ولكني أقول إن هؤلاء النظريين قد ارتكبوا مثل المغالطة التي ارتكبها هؤلاء الذين نسبوا موت صديقهم إلى تناوله طعام العشاء على مائدة مكونة من ثلاثة عشر رجلا ، أو الذين نسبوا سقوط المصفور إلى طريق الحجر . فهؤلاء يتركون الأسباب الحقيقية ، ويتمسكون بأخرى ليست موجودة في نفسها ولا ممكنة الإيجاد ، من وجهة نظر الإنسان ؛ فمثلهم في ذلك كمثل السكاب في القصة الذي ترك ما في فيه من عظم ليأخذ صورته التي بدت في الماء ؛ وأوهامهم أوهام عملية . فدعونا نرى أين تكون . وعلى الرغم من أنني أؤمن بحرية الإرادة ، فسأتنازل عن هذا الاعتقاد في هذه المحادثة ، وأفترض مع مدرسة سبنسر أن أفعال الإنسان كلها مقضى بها بالضرورة . وعلى هذا الأساس أقول : إذا كانت القوة التي تبحث عن سبب موت الرجل وعن سبب سقوط المصفور قوة حاضرة في كل مكان وعالمة بكل شيء وقادرة ، لهذا ، على أن تدرك الأزمنة والأمكنة كلها في نظرة واحدة ، فسوف لا يكون هناك من مبرر لنقد النظرية التي ترى أن الحجر والمائدة المشئومة داخلتان ضمن الأسباب والبحوث عنها . إذ تكون هذه القوة الإلهية قادرة على أن ترى في الحال الأسباب اللانهائية التي تتضمن وتؤدي إلى مثل هذه النتيجة ، وعلى أن تراها كلها بلا قصور : فترى أن المائدة المشئومة كانت من الظروف المؤدية إلى سقوط المصفور ، كما كانت من

الظروف المؤدية إلى موت الرجل ، وترى أن الغلام مع حجره كان شرطاً في انزلاق الرجل كما كان شرطاً في سقوط العصفور .

ولكن العقل الإنساني قد ركب على نحو مخالف كل المخالفة لهذا النحو . إذ ليس له من قدرة على تلك النظرة البديهية الشاملة ، وتضطره محدوديته لأن يرى شيئين أو ثلاثة أشياء فحسب في اللحظة الواحدة . فإذا أراد أن ينظر نظرة شاملة ، فعليه أن يلجأ إلى الفكر الذهنية العامة ، ولكنه يعتمد ، حينئذ ، عن الحقائق الواقعية . فإذا ما أردنا في مثل هذه الحال أن نعرف الارتباط بين طريق المجرة والغلام ومائدة العشاء وسقوط العصفور وموت الرجل ، فليس لنا إلا أن نلجأ إلى ما يسمى بالقضايا الذهنية المجردة . وهي قضايا خاوية خالية . ولا بد أن نقول إن الأشياء كلها مقدرة ومرتبطة بعضها ببعض في وحدة لا تنقسم من نظام عام من قوانين الطبيعة . ولكننا نفقد ، في إيهام تلك القضية الذهنية ، كل رابطة أو حقيقة واقعية . وهذه الأمور الواقعية هي كل ما يعنيننا من المسائل العملية .

العقل الإنساني متحيز وجزئي بطبيعته . ولا يكون ذا مقدرة وكفاية إلا بتخيره ما ينتبه إليه ، وبتركه كل ماعداه ، - بتضييقه وجهة نظره ، وإلا توزعت قوته الضئيلة وضل في تفكيره . والذي يدعو المرء دائماً لأن يعمل لإرضاء غرائز حب الاستطلاع هو إرادة تحقيق بعض الأغراض الخاصة . فإذا كان الغرض العقاب في مسألة العصفور فإنه يكون من البلاهة أن تنتقل من انقطاط ، والعلمان ، وكل ما يمكن من فاعل آخر كان موجوداً في الشارع قريباً من موطن الحادث ، لتختبر حالة القدامى من السكانيين وطريق المجرة ، فإن الغلام ، بهذا ، سوف ينجو . وفي حالة الرجل المنكود ، إذا ما أمعنا في تدبر أسرار المائدة وما كان حولها من رجال ، ولم

نفكر في الثلوج المترامية على الباب فنزيلها أو نضع عليها مقداراً من الرمال ، فإنه قد يمر عليها بعض من لم يتناول طعاماً خارج بيته قط من الرجال ، فنزل قدمه وتنكسر جمجمته أيضاً .

لذا كان من الضروري لنا أن نحد من آرائنا . ونحن نعلم أن بعض الكميات المتناهية في الصغر تهمل في الحساب ، مثلاً ، تحت ظروف خاصة ، فلا يقيم لها الحاسب وزناً . إنها موجودة في نفسها ، ولكنها عديمة الجدوى من وجهة نظره الرياضية . كذلك العالم الفلكي ، في بحثه حركات المد والجزر في المحيطات ، لا يقدر حساباً للأمواج التي تثيرها الرياح أو توجد في السفن التي تمخرعها ليلاً ونهاراً بما تحمل من آلاف الأطنان . كذلك الرامي نحو الهدف ، حين يستعمل آلة الرمي ، يقدر حركات الرياح ، ولكنه لا يفكر في حركة الأرض ولا في الحركة الشمسية مع أنهما حق أيضاً . كذلك رجل الأعمال التجارية المحافظ على مواعييده وأوقاته ، قد يتجاهل تأخيراً قليلاً كخمس دقائق مثلاً ؛ بينما أن العالم الطبيعي ، في مقياسه سرعة الضوء ، لابد أن يعتبر كل لحظة من ألف لحظة من الثانية .

وباختصار ، هنالك في الطبيعة دوائر شتى من العمليات ، وفروع مختلفة مستقل بعضها عن بعض استقلالاً نسبياً ، بحيث إن ما يوجد في أحدها في لحظة ما قد يكون منسجماً في الوقت نفسه مع أية حالة توجد عليها الأشياء في اللحظة التالية . فيظهر التمعن على وجه « البسكويت » في مخزن طعام الجيش ، مثلاً ، بقطع النظر عن الأمة صاحبة السفينة ، وبقطع النظر عن الناحية التي تقصد في الرحلة ، وبقطع النظر عن الحالة الجوية ، وبقطع النظر عن القصص الإنسانية التي تمثل على السفينة ؛ وقد يبحثه

العالم بفن الفطريات من غير التجاء إلى أى واحد من هذه التفاصيل . وليس يقدر المرء على أن يحدّد ذهنه في الحقيقة ليعلم شيئاً من طبيعتها إلا على هذا النحو من البحث . ولكن من ناحية أخرى ، إذا ما شغل القائد نفسه بالسكويات المتعفن ، أثناء انشغاله بمعرفة بحرية ، فإنه غالباً ما ينحسر الحركة بسبب الإفراط في الدقة العقلية .

لا يمكن ربط الأسباب المؤثرة في هذه الدوائر الكثيرة بعضها ببعض إلا من وجهة النظر العامة الشاملة للعالم كله . وكل ما دون ذلك في العموم من وجهات النظر يصح له أن يعتبر هذه الأسباب منفصلاً بعضها عن بعض ، بل تلزمه الحكمة بذلك . وهذا يقربنا من موضوعنا الخاص . إذا نظرنا إلى حيوان أو إلى إنسان ، قد تميز عن نوعه ببعض الصفات الخاصة ، الخبيثة أو الطيبة ، فإننا يمكننا أن نميز الأسباب التي أوجدت تلك الصفات فيه من الأسباب التي أبقتها فيه بعد أن وجدت ، ويمكننا أن نرى أيضاً ، إذا ما كان قد وُلد مزوداً بتلك الصفات الخاصة ، أن هذين النوعين من الأسباب يرجعان إلى دائرتين مختلفتين غير مرتبطتين ببعضهما البعض . تلك حقيقة اكتشفها دارون ، وكان اكتشافه إياها وعمله على أساس اكتشافه هذا انتصاراً له وتجديداً منه . فبعد أن فصل دارون أسباب الإيجاد والإنتاج تحت عنوان «الاتجاه التلقائي نحو التميز والاختلاف» (Tendencies to spontaneous variation) ، وأرجعها إلى دائرة فزيولوجية محضة ، وقرر أن يتجاهلها بالكلية ، حصر انتباهه في أسباب الحفظ ، وبحوثها تحت عنوان «الانتقاء الطبيعي والانتقاء الجنسي» بحثاً شاملاً مستفيضاً ، واعتبرها وظائف لدائرة البيئة .

وقد حاول سابقو دارون من الفلاسفة أيضاً أن يبرهنوا على نظرية النشوء مع بعض التعديل ؛ ولكنهم ارتكبوا جميعاً تلك الهفوة من جمع النوعين من السببية في

نوع واحد . إذ أنهم كانوا يرون أن ما يحفظ على الحيوان صفاته الخاصة به ، إذا ما صح له أن يكون حيواناً نافعاً ، هو طبيعة البيئة التي تنسجم معها تلك الصفات الخاصة . فعاشرت الزرافة بمنقحها الطويل ، مثلاً ، لأنه كان في بيئتها أشجار طوال تتمكن هي من هضم أوراقها . ثم ذهبوا إلى ما هو أبعد من ذلك وقالوا : إن مثل هذا الشجر لم يحفظ حياة حيوان ذى عنق طويل فحسب ولكنه أوجد ذلك الحيوان أيضاً . إنه جعل عنقه طويلاً بسبب ما أثاره فيه من محاولة دائمة ليصل إليه . وباختصار ، افترض هؤلاء الفلاسفة أن البيئة تضغط على الحيوان ضغطاً مباشراً فتكيفه تكيفاً مناسباً لها ، كما أن الختم يحول الشمع تحويلاً يجعله ينسجم مع صورته وشكله . ولقد ذكروا أمثلة كثيرة لذلك النحو من التغير الذي يجرى تحت أعيننا : فيعطى استعمال المطرقة اليد اليمنى قوة ، ولا تحس اليد المتعوده على المقذاف به كثيراً ، ويوسع هواء الجبال من الصدر ، ويصبح الثعلب الذى طُورِد كثير الدهاء ، ويصبح الطير المطارد كثيراً الخوف ، وهكذا . وتسمى الآن هذه التغيرات ، التي يمكن اقتباس كثير منها ، بالتغيرات الموقفة . وقاعدة تلك التغيرات هي أن كل خاصية في البيئة ، يتكيف بها الحيوان ، هي نفسها الموجودة لذلك التكيف . أو نقول مقتبسين عبارة سبنسر نفسه « تتلاءم الحالة النفسية مع سببها الفعال » .

كان أول عمل عمله دارون هو أن بين أن مقدار التغيرات التي تنشأ عن التكيف المباشر ليس له أهمية ما ، وإنما المهم هو التغيرات التي تنشأ عن الذرات الداخلية المعارضة التي لا نعرف عنها شيئاً . وكان عمله التالى لذلك هو تحديد المشكلة التي سنواجهها نحن ونبحثها عند ما نتحدث عن تأثير البيئة المحسوسة في الحيوان . وتلك المشكلة هي : هل الغالب أن تهلك البيئة أو تحتفظ به بسبب هذه الخصوصية أو تلك الصفة التي ولدها ؟ وينبغي أن يلاحظ ، أولاً ، أن دارون ، حين يسمى تلك الصفات

الخاصة التي يولد بها الحيوان « الاختلافات المرضية » ، لايعنى أنها ليست نتائج حتمية للقانون الطبيعي ؛ فنحن ، إذا بحثنا القانون الكلى للعالم ، وأخذنا العالم جملة ، لايعترينا شك في أن أسباب هذه الاختلافات ، والبيئة المشاهدة التي تبقى هذه الاختلافات أو تزيلها ، يرتبط بعضها ببعض . ولكن الذي يقصده دارون هو : بما أن البيئة شيء واضح معروف ، وبما أن علاقتها بالمضو في إبقائها أو إهلاكها إياه أمر بين محسوس ، فإنه يكون من التشويش على قوتنا الإدراكية ومن التخييب لآمالنا العلمية أن نضم إليها حقائق من دائرة منفصلة عنها ، مثل تلك الدائرة التي وجدت فيها الاختلافات . وتلك الدائرة الأخيرة هي دائرة الحوادث التي وجدت قبل ولادة الحيوان . وهي دائرة التأثيرات على بيضة المبيض وعلى الجراثيم المنوية ، التي يكمن فيها من الأسباب مايطرق هذه البويضات وتلك الجراثيم ويدفعها لتكون ذكراً أو أنثى ، ولتكون قوية أو ضعيفة ، صحيحة أو مريضة ، ولتكون مخالفة لشكل الآباء . فإهي ، إذن ، تلك الأسباب هناك ؟

إنها ، أولاً ، ذرية وغير مرثية ، وهي ، لهذا ، ليست خاضعة لأي نوع من أنواع الملاحظة . وتنسجم عملياتها ، ثانياً ، مع كل حالة ممكنة من حالات البيئة الاجتماعية والسياسية والطبيعية . فقد يلد الزوجان اللذان يعيشان في نفس البيئة مرة غلاماً موهوباً ، وأخرى غلاماً أحمق أو عجيب الشكل غريباً . وليست الحالات الخارجية المحسوسة هي المحدد المباشر لتلك الدائرة ؛ وكلما أعمقنا البحث في الموضوع وجدنا أنفسنا مضطرين لأن نعتقد أن الشقيقتين قد يختلفان لأسباب لا تنسجم مع كل ما لها من نتائج ، ولا تبرر هذا الاختلاف .

لا يبدو الفرق الميكانيكي العظيم بين القوة التمديدية والقوة المفرغة واضحاً في مكان ما كما يبدو في علم وظائف الأعضاء . كل الأسباب هنالك ، تقريباً ، قوى مفرغة ،

مهمتها إبراز الطاقة الموجودة هناك بالفعل . وينحصر عملها في تهيج التوازن غير المستقر ؛ وتوقف النتيجة على طبيعة المواد المهيّجة أكثر من توقفها على المثيرات الخاصة التي تثيرها . فإذا ما أجريت ، مثلاً ، تجارب غلوائية (Galvanic Work)^(١) مساوية لوحدة على عصب ضفدع فإنها سوف تفرغ من العضلة التي ينتمى إليها العصب قوة ميكانيكية توازي سبعين ألفاً من الوحدات ؛ وتوجد نفس النتيجة إذا استعملت مهيّجات أخرى غير مهيّجات Galvani . ليس للتهيج عمل هنا أكثر من بدء أو تحريك شيء ما ، ويظل ذلك الشيء بعد ذلك متحركاً بنفسه ، كما أن عود الثقاب يشعل النار فحسب ، ثم تحترق المدينة بعد ذلك بنفسها . وقد لا تكون النتيجة كذلك متناسبة مع سببها الفعّال كيفية ، كما أنها قد لا تتناسب معه كمية . ولإننا لنجد من تلك الحالة كثيراً في المواد العضوية . فلقد تحير الكيميائيون في دراساتهم من الصعوبات التي يواجهونها من عدم استقرار المركبات الأليودية Albuminoid . فقد يوضع نموذجان منها في حالات تبدو متشابهة كل التشابه ، ولكنهما ، على الرغم من ذلك ، يتصرفان تصرفات مختلفة . ولا شك أنكم تعلمون شيئاً عن عمليات التخمر ، وتعلمون كيف أن مصير اللبن في وعائه - سواء تحول إلى خثرة حامضة أو إلى كتلة من الكيموس - يتوقف على ما يوجد أولاً من حمض التخمر اللبني أو من الحمض الكحولي ، ويسبق الآخر في عمله . فعند ما تكون النتيجة ميلاً من بيضة المبيض للاتجاه نحو هذه الناحية أو تلك في مراحل تطورها ، - لتبرز في الوجود نابغة أو أحمق ، - أفلا يكون من الواضح أن سبب هذا الميل لا بد أن يكون موجوداً في دائرة

(١) نسبة إلى ذلك العالم الإيطالي Luigi Galvani ، الذي ولد في القرن الثامن عشر ١٧٣٧ ، والذي كان مشغولاً بعلم وظائف الأعضاء ، وكانت له بحوث حول الكهرباء الحيوانية ؛ وكانت أعماله في مجلتها تجارب على ضفادع . وفي عام ١٧٩١ ، أخرج كتاباً حول « القوة الكهربائية في الحركات العضلية » ، وبذا كان أحد الممهدين لعلم الكهرباء .

بميدة ودقيقة ، ولا بد أن يكون متناهما في الصغر مع إحكام في النظام ودقة ، بحيث إن الوهم والخيال لا ينجحان في محاولة تكوين صورة له ؟

فما دام الأمر كذلك ، ألم يكن دارون على حق في إهمال تلك الدائرة كلها ، وفي الاحتفاظ بمشكلته مبرأة من الاتصال بمثل هذه الموضوعات ؟ إن نجاحه في مجهوده لجواب إيجابي كاف على هذا السؤال .

وذاك يوصلنا إلى صميم موضوعنا . توجد أسباب وجود العظام من الرجال في دائرة لا يمكن أن يصل إليها الفيلسوف الاجتماعي . فلا بد له من أن يقبل النبوغ حقيقة واقعية ، كما فعل دارون بالنسبة للاختلافات الطبيعية . وليست المشكلة عنده وعند دارون إلا : كيف تؤثر هذه الحقائق في البيئة بعد وجودها وكيف تؤثر فيها البيئة ؟ وإنني أرى أن علاقة البيئة المشاهدة بالرجل العظيم هي في جوهرها مثل علاقتها في فلسفة دارون بالاختلافات . فهي إما إن تقبله ، وإما أن ترفضه ، إما أن تحتفظ به وإما أن تهلكه ، وباختصار هي تنقيته^(١) . وعند ما تقبل ذلك العظيم وتحتفظ به ، فإنها تتغير به على نحو جديد خاص . إنه يعمل كمخمر فيها فيغير من طبيعتها ، كما أن ظهور نوع جديد من الحيوانات في بقعة ما يغير من التوازن الحيواني والنباتي فيها . وكلنا ، لا شك ، يذكر عبارة دارون الشهيرة حول تأثير القطط في نبات البرسيم في البقاع المجاورة . ولقد قرأنا كثيراً حول تأثير الأرب الأوروبي في نيوزيلاندا ، وساهم كثير منا في الجدل حول عصافير إنجلترا هنا (الزراير) ، - أي تقتل الأساريع ، أم تطرد أكثر الطيور المحلية ؛ وهكذا الرجل العظيم ، - سواء

(١) إنه لحق أنها تهذيبه وتغير منه لحد ما بآثارها الثقافية ، ويكون هذا ناحية مهمة من المفارقة بين الحالة الاجتماعية والحالة الزبولوجية . ولقد أهملت تلك الناحية من العلاقة ، لأن الناحية الأخرى أكثر منها أهمية . وسأرجع إليها عرضاً قبيل الفراغ من هذا المقال .

أكان وارد آمن الخارج مثل كلايف Clive^(١) في الهند وأجاسيز Agassiz هنا ، أم ناشئا من البقعة نفسها مثل محمد^(٢) وفرانكلين Franklin^(٣) ، — يوجد نوعان التنظيم الجديد ، في دائرة محدودة أو واسعة ، في العلاقات الاجتماعية التي كانت موجودة بالفعل .

تغيرات الجماعات من جيل إلى جيل ، إذن ، نتيجة مباشرة أو غير مباشرة لأفعال الرجال ولمثل الأفراد الذين انسجم نبوغهم مع حاجات اللحظة التي وجدوا فيها ، أو الذين كان لهم من السلطان ما سمح لهم بأن يكونوا مخمرين ، ومبتدئين لحركات جديدة ، ومقررين لقواعد أو نماذج جديدة ، أو كانوا من المفسدين ، أو من المبيدين لبعض من الأفراد الآخرين ، الذين لو كان لهم من الأمر شيء لاعتبت مواهبهم دوراً مهماً في قيادة الجماعة إلى طريق مخالف لطريقهم .

نحن نرى حولنا أمثلة شتى من قوة ابتكار الأفراد هذه في دائرة ضيقة محدودة ، ونراها في دائرة واسعة في حالة قادة التاريخ . وليس هذا إلا رجوعاً لتلك القاعدة العامة الماثورة عن ليل ودارون وهوتني Whitney من شرح المجهول بالعلوم ومن جمع ما يمكن أن نلاحظه فحسب من أسباب التغير الاجتماعي . والجماعات مثل الأفراد سواء بسواء ، في أن في كل منهما صلاحية مهمة للتطور والتقدم . فيتردد الشاب : أيدخل في الأعمال التجارية أم ينتظم في سلك الحكومة ؟ ويتوقف جوابه على هذا

(١) هو جندي بريطاني ، ولد في القرن الثامن عشر سنة ١٧٢٥ . ولقد اكتسبت شهرته العظيمة من حروبه في الهند . فقد قاد معارك جمة هناك ، كان النصر حليفه فيها كلها ، وبذا وطد دعائم الحكم البريطاني هناك . وأخيراً مات منتحراً في الهند عام ١٧٧٤ .

(٢) يعني به الرسول محمد صلى الله عليه وسلم .

(٣) هو بنيامين فرانكلين السياسي الأمريكي الذي عاش في القرن الثامن عشر ؛ وكان له مجهود كبير في الحركة التي أدت إلى استقلال الولايات المتحدة ؛ وله مجهود كبير أيضاً في وضع دستورها . وكان معنياً كذلك بالبحوث العلمية ، وخاصة البحوث الكهربائية . وهو الذي اخترع

موصل الصاعقة (Lightning conductor)

السؤال على ما يقرره قبل مجيء فترة معينة من الزمن . فإذا ما قبل عملاً تجارياً فقد تحدد الجواب . وبالتدريج ، لا يمكن أن تعتبر العادات والمعارف في إدارة الأعمال الأخرى ، التي كانت يوماً ما قاب قوسين منه أو أدنى ، حتى من الأمور الممكنة له . قد يتردد هذا الشاب في المبدأ متسائلاً : ألم تكن الحالة التي ازدهارا وطردتها ساعة القرار خير الحالتين ؟ ولكن بعد مرور فترة من الزمن تموت مثل هذه الشكوك ، وتذبل الصورة القديمة للنفس ، التي كانت يوماً ما في غابة النضارة والازدهار ، بل تصبح شيئاً أقل من الأحلام . ولا يختلف الأمر عن ذلك فيما يتعلق بالأمم . فقد يقودها ملوكها ووزرائها إلى الحرب أو إلى السلم ، وقوادها إلى النصر أو إلى الهزيمة ، وأنبيائها إلى هذا الدين أو إلى ذاك ، وتقودها أنواع النبوغ المختلفة إلى الشهرة في الفنون ، أو في العلوم ، أو في الصناعات . ولا شك أن الحرب متشعب حقيق لكثير من الممكنات في المستقبل . وسواء أكانت نتيجتها انتصاراً أم انهزاماً ، فإن إعلانها لا بد أن يكون مبدأ لسياسة جديدة . وهكذا الثورة ، أو أية حادثة عظيمة ، تصبح سبباً موجهاً يزيد مفعوله على مر الأيام . ولا شك كذلك في أن الجماعات تخضع لمثلها ؛ وكل نجاح ، ولو كان عرضياً ، يقرر تلك المثل ويؤكد كدها ، كما أن الإخفاق يضعفها ويبطلها . هل كان يمكن أن يكون لانجلترا اليوم ذلك النظام الإمبراطوري الذي يتحكم الآن فيها ، إذا كان الغلام المسمى كلايف Clive قد انتحر وهو صغير ، كما فعل ذلك بعد في مدراس ؟ وهل كان يمكن أن تكون ذلك الرمث العائم التي هي عليه الآن في كل المسائل الأوروبية ، إذا كان فريدريك Fredrick الأكبر قد ورث عرشها بدل فيكتوريا Victoria ، أو كان كل من بنتام ، Bentham ، وميل Mill ، وكوبدن Cobden^(١) قد ولد في روسيا ؟ . ولو كان بسمارك Bismarck قد مات في مهده ، لظل الألمان مقتنعين

(١) هم من علماء انجلترا الممتازين الذين اشتهروا بنظرياتهم الأخلاقية والسياسية .

بأنهم رجال زراعة وفنون ، ولظلوا في نظر الشعب الفرنسي قوما دمّث الأخلاق مهذّبين ، أو بسطاء موسيقيين . ولكن إرادة بسمارك جعلتهم يعجبون من أنفسهم حين رأوا أنهم يقدرّون على أعمال أخرى أكثر حيوية من هذه الأعمال . ذلك درس سوف لا ينساه العالم أبداً . وقد تخضع ألمانيا لكثير من التقلّبات ، ولكنها سوف لا تمحو أبداً تلك الآثار التي وجدت من قبل ؛ وهى تلك الآثار التي كانت نتيجة لا بتسكار بسمارك ، أعني ما بين ١٨٦٠ و ١٨٧٣ .

لا بد أن يُعتبر تأثير النوابع ، على الأقل ، عنصراً من عناصر التغيرات التي تسكوّن التطور الاجتماعي . وتطور الجماعات يكون على أنحاء شتى ؛ والمحدد للطريق الذي سوف تتطور فيه الجماعات هو الوجود العرّضى لهذا المخمر أو لذاك . فطُيور الغابات ، كالبيغاء ، مثلاً ، تقدر أن تحاكي الإنسان في النطق ، ولكنها لا تقدر أن تبدأ بنفسها ، ولا بد أن يكون هناك من يعلمها . وهكذا الشأن معنا نحن الأفراد . فبعلما Rembrandt^(١) كيف نتمتع بكفاح الضوء مع الظلام؛ وبعلما Wagner^(٢) كيف نتمتع ببعض الآثار الموسيقية الخاصة . وأما ديكينز Dickens فإنه يوجه ضربته نحو عواطفنا ؛ ويوجهها A. Word إلى أذواقنا؛ وأما إميرسون Emerson^(٣) فيشعل فينا نوعاً من الضياء الخلقى . ولكن ما دام هذا حقاً بالنسبة لكل فرد من الجماعة ، فكيف لا يكون حقاً بالنسبة للجماعة كلها ؟ إذ أن الجماعة قد تتخذ ما يبين لها من طرق ، فإذا لم تجد من يبين لها الطريق فسوف لا تجده أبداً . ولكن،

(١) هو ذلك المنصور الهولندي الشهير الذي عاش في القرن السابع عشر ، ولا يزال يوجد من رسومه وصوره وزخارفه الشيء الكثير .

(٢) هو من نوابغ علماء ألمانيا في الموسيقى في القرن التاسع عشر .

(٣) تلك كلها أسماء لرجال من رجال الإصلاح الذين عاشوا في القرن التاسع عشر . وكان ديكينز انجليزياً ، وكان الآخران من أمريكا .

غالبا ما تكون هذه الطرق غير محدودة ؛ ويرجع هذا إلى تعدد النوابع التي يرمونها ،
فتتبع الجماعات هذا أو ذلك ، كما ينحاز الفرد لهذا العمل أو لذلك .

ولكن ليس هذا اللاتحديد في الطرق لا تحديداً مطلقاً ، فليس كل رجل يناسب
كل حادثة ؛ وبذا أمكن أن يوجد أحيانا شيء من عدم الانسجام بين النابعة والبيئة .
فقد يظهر النابعة قبل أوانه ، وقد يأتي متأخرا عنه ؛ وفي الحالين لا يكون له الأثر
المرجو . فلو وجد الآن بطرس الزاهد (Peter the Hermit) ، مثلاً ، لأرسل إلى بيت
المجانين ؛ ولو عاش « ميل » في القرن العاشر لعاش مجهولاً ولمسات مجهولاً كذلك .
واقعد احتاج كل من نابليون وكرومول (Cromwell)^(١) إلى الثورة ؛ واحتاج Grant
إلى الحرب الأهلية ؛ ولا يكون لواحد من أجاكس (Ajax)^(٢) شهرة في زمن البنادق
ذات التايسكوب ؛ أو ، لنستعمل مثلاً استعماله سيدنسر نفسه ولكن في ثوب آخر ،
ماهو الأثر الذي كان يمكن أن يتركه وات (Watt)^(٣) بين جماعة لم تعلمها المهارة صهر
الحديد أو إدارة المحرطة ؟

والذي ينبغي أن يلاحظ الآن هو أن الذي يجعل بعض النبغاء غير منسجم مع بيئته
ليس ، في الغالب ، إلا أن البيئة قد تكيفت من قبل بفعل نابعة آخر تكيفاً لا يمكن

(١) هو ذلك الجندي البريطاني الذي عاش في القرن السابع عشر ، والذي نهضت به همته ،
وارتقت به من ذلك المستوى العادي حتى أوصلته إلى أكبر ما يطمح إليه أمثاله . إذ وصل بجهوده
إلى عرش إنجلترا ، فأصبح حاكمها المطلق . وكنت له في السياسة ، وخاصة الخارجية منها ،
بإع طويل .

(٢) هذا اسم لبطالين خرافيين من أبطال الإغريق .

(٣) مخترع انكليزي ، عاش في القرن الثامن عشر ، ويرجع إليه الفضل في كثير من
التطورات التي حدثت في الآلات البخارية .

أن تقبل معه كيف آخر . فلا يمكن أن يكون هناك مكان لبطرس الزاهد بعد فولتير (Voltaire) ، ولا يمكن أن تصبح البروتستانتية مذهباً عاماً في فرنسا بعد شارل (Charles) التاسع ولوى (Louis) الرابع عشر؛ وليس نجاح بيكونسفيلد (Beaconsfield) بعد مدرسة مانشستر إلا نجاحاً مؤقتاً ، ولم يتقدم كاسلر (Casteler) بعد فيليب (Philip) الثاني إلا قليلاً . وهكذا ، عند كل متشعب ، تنتفي بعض جوانب الموضوع ، وتقل الطرق الممكنة في المستقبل . ويقول كليفورد (Clifford) : «من خصائص الكائنات الحية أنها لا تتغير بسبب ما جاورها من ظروف فحسب ، ولكنها تحتفظ مع ذلك بكل ما يحدث فيها من تغيير ، وكأنها تحولها إلى شيء عضوي يعمل مع سائر الأعضاء الأخرى ليوجد أفعالا وآثاراً جديدة في المستقبل . فإذا أحدثت تشويهاً في شجرة فامية وأوجدت فيها أعوجاجاً ، فإن كل مجهود ، تبذله بعد ذلك ليقوم من هذا الإعوجاج ، بمجهود ضائع لا يمحو أثر ذلك التشويه ، لأنه أصبح جزءاً من طبيعة الشجرة . ولكن ، افترض الآن أنك أخذت قطعة من الذهب وصهرتها ثم تركتها تبرد .. أفيقدر إنسان من مجرد اختباره لها ، أن يحدد عدد المرات التي صهرت فيها في المصور الجيولوجية بيد الإنسان ؛ بل ، أيقدر أن يخبر بعدد المرات التي صهرت فيها في العام المنصرم ؟ وأما من يقطع شجرة من شجر البلوط فإنه يقدر أن يعرف عدد ما مر عليها من السنين ، بعد ما في جذعها من ثنايا ومقاطع ؛ وباختصار ، يمكن أن نقول : لا يتضمن الكائن الحي تاريخ وجوده فحسب ، بل يتضمن بالضرورة تاريخ وجود أسلافه كذلك . والجماعة كائن حي ، فتخضع لمثل تلك القاعدة .

كل رسام يعلم أن إضافة أي خط إلى رسمه تغير من معالته ، وأن كل ما يأتي أوينشاً من اتجاهات بعد ذلك فهو مترتب على الخطوط القليلة التي رسمت أولاً . وكل من يحاول

من الكتاب أن يغير ما كتبه في موضوع ما يحس بأنه من المتعذر عليه أن يستعمل نفس العبارات التي كتبها أولاً . إذ أن الابتداء الجديد ينفي إمكانية استعمال الجمل الأولى والتركيبات الأولى ، ويفتح باباً جديداً لتراكيب وجمل غير محدودة ، ولكن ليس منها ما هو ضروري أو لازم الاستعمال . وهكذا الشأن بالنسبة للبيئة الاجتماعية: فلا تسمح البيئة الغابرة والحاضرة للجماعة بقبول بعض ما يقدمه الأفراد ، ولكنها لا تحدد تحديداً إيجابياً نوع الإضافات الفردية التي سوف تقبلها ، لأنها في نفسها عاجزة عن أن تحدد طبيعة ما سيقدمه الأفراد .

فالتطور الاجتماعي نتيجة لتفاعل عنصرين متمايزين تمام التمايز . فالعنصر الأول هو الفرد الذي يستمد مواهبه الخاصة من فعل قوى فسيولوجية وأخرى اجتماعية ، وإن كان يحمل قوى الاختراع والابتكار في يديه؛ والعنصر الثاني هو البيئة الاجتماعية مع مالها من قدرة على أن تقبله هو ومواهبه أو أن ترفضهما . وكلا العنصرين ضروري للتغير . فتجمد الجماعة إذا لم تكن هناك دوافع فردية ، وتموت الدوافع الفردية إذا لم تعطف عليها الجماعة .

كل هذا يبدو سليماً . وكل من يحب أن يرى هذا الموضوع متطوراً وبالفأ أشده بجهود بعض النابغين ، فليقرأ ذلك العمل القيم الذي قام به Bagehot^(١) في علوم الطبيعة والنظريات السياسية ، فالتد أبرز هناك صورة حية واضحة للكيفية التي تنمو بها الأشياء الواقعية وتتغير . ولقد وجدت دائماً عقليات ظهرت لها تلك الآراء شخصية صغيرة ، ومرتبطة بما قتل بحثاً من الانثروبومورفي^(٢) في نواحي أخرى من موضوعات

(١) هو كتاب الإنجليزي من كتاب القرن التاسع عشر .

(٢) Anthropomorphy هو وصف الإله بما للإنسان من صفات مادية ، ونسبة الميول والافعال الإنسانية إليه .

المعرفة. يرى هؤلاء الأفراد «أن الفرد يذبل ويذوى ، وأما العالم ففي اطراد وازدياد». وكلنا يعلم كيف أن العالم أصبح في نظر كل من بوكل ودريبر (Buckle و Draper) مساوياً لقطر أو إقليم . ونعلم أيضاً كيف استمر الجدل بين المتعصبين لعلم التاريخ وبين هؤلاء الذين ينكرون وجود أى قانون من القوانين الضرورية المتعلقة بمصالح الجماعة الإنسانية . ويهاجم سبنسر في مبدأ بحوثه الاجتماعية « نظرية الرجل العظيم » في التاريخ في رسالة ، نقتبس منها هذه العبارات :

« من الهين أن يمتد أن عظماء الرجال هم الذين يبنون الجماعات ، مادام هناك اعتماد على الفكر العامة ، من غير طلب للتفاصيل . ولكن إذا أردنا أفكاراً واضحة محدودة، ولم يرضنا الإيهام والغموض ، فإننا نتبين أن تلك الفرضية غير معقولة . فإذا لم نقف ، في شرحنا للتقدم الاجتماعى، عند الرجل العظيم، بل ذهبنا أبعد منه وسألنا من أين أتى ذلك الرجل العظيم؟ فإننا نجد أن النظرية تحقق كل الإخفاق . إذ يمكن أن يجاب عن هذا السؤال بأحد جوابين : أولهما أن للرجل العظيم منشأ أرق من المنشأ الطبيعى، وثانيهما أن منشأه طبيعى . فإذا تمسكنا بالأول وقلنا إن له منشأ غير طبيعى ، للزمنا أن نقول إنه إله أو نائب عنه ، ولكننا كنا قد أبطلنا إمكان تعدد الآلهة (Theocracy). وإذا لم يكن هذا جواباً مقبولاً ، وذهبنا إلى القول بأن منشأه طبيعى ، فلا بد أن يكون ، ككل الظواهر الأخرى في الجماعة ، نتيجة لما سبقه من مقدمات ، ولا بد ألا يشذ عن العصر الذى هو جزء منه صغير ، ولا يختلف عما فى هذا العصر من نظم وعادات ومن لغات ومعارف وصفات ، ومن فنون وعلوم ، فى أن كلا منها نتيجة لما سبقه من حوادث : فلا بد أن نعترف بأن أصول الرجل العظيم تتوقف على سلسلة طويلة من مؤثرات متعددة أنتجت الجنس الذى هو فرد منه وأنتجت الحالة الاجتماعية التى نشأ فيها ذلك الجنس . وبعبارة أخرى إن الجماعة تكونه قبل محاولته أن يكونها.

(٤ - ١١)

وكل التغيرات، التي قد يظن أنه هو سببها القريب، قد وجدت أسبابها الحقيقية في العصور التي نشأ هو عنها. فإذا ما أريد شرح حقيقى لهذه التغيرات، فلا بد من البحث عن أسبابها في مجموعة الحالات التي أوجده هو وإياها»^(١).

ولكن أليس هناك كثير من التسرع في رمى آراء هؤلاء، الذين يمتدقون أن للناطقة قدرة على الابتكار والتجديد، بالغموض والإبهام؟

افترضوا أنني أقول إن الاعتدال في الجدل الدينى والاجتماعى والسياسى، الذى تمتاز به اليوم إنجلترا، ويجعلها تحالف الوضع الذى كانت عليه من ستين عاماً مضت، هو، إلى حد كبير، أثر لماضيه «مل» من مثل. قدأ كون مخطئاً فى حكمى هذا؛ ولكننى، على كل حال، متحدث عن مسائل خاصة، ولست معتمداً على الفكر العامة؛ وإذا ما قال سبنسر إن هذا الاعتدال لم ينشأ عن أسباب فردية ولكن عن مجموعة الحالات والعصور التي نشأ عنها «مل» وكل من عاصره، أو باختصار، عن كل النظم الغابرة للطبيعة، فإنه يكون هو الشخص الذى يرضى بالغموض والإبهام.

إن قاعدة علم الاجتماع التي يستعملها سبنسر هي، فى الحقيقة، مثل قاعدة من يلجأ إلى منطقة البروج ليعمل قتل المصفور وإلى الثلاثة عشر رجلاً على الخوان ليعمل موت الرجل، وليس لها من قيمة علمية أكثر من قيمة تلك القاعدة الشرقية، التي تستعمل للإجابة عن كل سؤال مهما كان شأنه، من النطق بتلك العبارة الحققة «الله قادر». ولقد أصبح عدم الالتجاء إلى الإله عندنا نحن الغربيين فى كل مسألة يمكن أن يوجد لها سبب قريب أمارة على القدرة العقلية.

إن اعتقاد أن سبب كل شيء يمكن أن يوجد فيما سبقه من أحداث هو البداية،

(1) Study of sociology, Pages 33-35.

وهو الفرض الأولي ، ولكنه ليس الفرض الهائي للعلم . وإذا لم يقدر العلم أن يخرجنا من التيه إلا من نفس الثقب الذي دخلنا منه ، بعد مجهود ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف عام ، فإنه لا يكاد يساوي ما بذلنا من مجهود في تتبعه في حالك الليالي والأيام . وإذا كان هناك يقين ما ، فهذا القدر يقيني حسب الطاقة الإنسانية : وهو أن الجماعة لا تقدر أن تصنع الرجل العظيم قبل أن يكون هو قادراً على تكييفها . إن الذي يصنعه هو القوى الفسيولوجية ؛ وأما الحالات الاجتماعية ، والسياسية ، والجغرافية ، ولحد كبير الحالات الانثروبولوجية ، فليس لها من الدخول في تكييفه إلا بمقدار ارتباط حالات فوهة بركان فيزوف باضطراب ذلك الغاز الذي أكتب الآن تحت ضوءه . فهل يعني سبنسر أن أنواع الضغط الاجتماعي التقت كلها وأثرت في (Stratford) ^(١) on-Avon حوالى السادس والعشرين من شهر إبريل سنة ١٥٦٤ لتوجد شكسبير (Shakespeare) مع كل مميزاته العقلية ، كما أن قوة الضغط على الماء التي يسببها الزورق توجد تياراً معيناً يجرى إلى بركة خاصة ؟ وهل يريد أن يقول إنه إذا كان شكسبير قد مات في مهده بالطاعون ، فإنه كان لابد لامرأة أخرى من (Stratford) on-Avon أن تلد شبيهاً له ليحفظ بذلك التوازن الاجتماعي ؟ أو هل كان يمكن أن يظهر البديل في (Stratford-atte-Bawe) ؟ إنه ليس من الهين هنا ، كما أنه ليس من الهين في أى مكان آخر ، أن تعرف ما الذى يقصده سبنسر .

ولكن مريده جرانت ألن (Grant Allen) لا يتركنا في شك فيما يتعلق بمقصده الحقيقى . فقد أذاع هذا الكاتب الألمى مقالين في العام الماضى في مجلة جنتلمان (Gentleman) ، أبان فيهما أنه ليس للفرد أثر ما في تكييف التغيير الاجتماعى ، فقال :

(١) البلد التى ولد فيها شكسبير .

« لا تتوقف الفروق بين أمة وأخرى في القوى العقلية ، وفي التجارة ، وفي الفنون ، وفي الأخلاق ، وفي الصفات العامة ، على أى معنى خفى في العنصر ، أو في الأمة ، أو على أى شئ آخر غير معروف ، أو على أى معنى عام غير مدرك أو واضح ، ولكنها تتوقف على الظروف المادية التي تتعرض لها الأمم . وإذا كان حقاً ، كما نعرف جميعاً ، أن الشعب الفرنسي يختلف اختلافاً بيناً عن الشعب الصيني ، وإذا كان عالم هامبورج يختلف عن عالم تيمبوكتو ، فليس ذلك الاختلاف الواضح إلا نتيجة لعمل البيئة الجغرافية . فإذا كانت الجماعة التي ذهبت إلى هامبورج قد استوطنت تيمبوكتو ، فإنه كان يكون من المسير تمييزهم الآن عن هؤلاء الزنوج الهمجيين^(١) . وإذا كانت جماعة تيمبوكتو قد استوطنت هامبورج ، فإنهم كانوا يكونون الآن بيض الجلود وتجاراً في المرافئ العامرة . فلا بد أن يبحث عن أسباب المفارقة في الصفات الجغرافية الثابتة للأرض وللبحار : - فهذه هي التي صاغت بالضرورة أخلاق كل شعب على وجه البسيطة وتاريخه ؛ ولا يمكننا أن نعتبر أى شعب عنصراً فعالاً في تمييز نفسه عن الشعوب الأخرى . إن الحالات المجاورة هي التي توجد هذا الأثر (تنفي هاتان الجملتان وجود أسباب فسيولوجية مستقلة ولو استقلالاً نسبياً) ، وافترضك غير هذا يؤدي إلى القول بأن عقل الإنسان مستثنى من القانون العام للسلبية والمسيبية . والواقع أنه ليس هناك من شذوذ ، ولا من دوافع شخصية في

(١) لا ! حتى ولو كانا أخوين لحما ودما ! فإن العنصر الجغرافي يخفى كلبية أمام عنصر الوراثة . ولأهمية للمفارقة الجغرافية بين جماعتين عند ما تقارن بالمفارقة الطبيعية بين أسلاف جماعتين من الجماعات ، حتى ولو كانت هذه المفارقة غير واضحة للعين المجردة ، كما هو الشأن في التوأمين . ولا يمكن أن يكون فردان من جماعات متشابهة متحدين بحيث ينتجان نسباً واحداً إذا ما وُضعا في بيئة واحدة . إذ أن أقل فرق بينهما في المبدأ لابد أن يزيد ويتسع جيلاً بعد جيل حتى ينتهي بذريبات مختلفة كل الاختلاف . « جس » .

المحاولات الإنسانية . فليس الذوق نفسه وليست الميول كلها إلا نتائج للعناصر المحيطة » .^(١)

وبقول ألان في موضع آخر عند تحدّثه عن الثقافة اليونانية :-

« إنها كانت نتيجة مطلقة للبيئة الجغرافية الهيلانية في تأثيرها على العقل الآري الفطري ... وإنه يبدو لي أمراً بدهياً أنه ليس هناك ما يمكن أن يميز جماعة من الرجال عن آخرين ، إلا ما يوجدون فيه من حالات مادية ، - وتدخل ضمن تلك الحالات المادية طبعاً العلاقات الزمانية والمكانية التي تربطهم بالجماعات الأخرى . وافترضك غير هذا يستلزم منك إنكاراً لقوانين السببية الأولية ، وظنك أن العقل يمكنه أن يميز نفسه عن غيره ليس له من معنى إلا تصور أنه يمكن أن يتميز بلا سبب^(٢) » .

تلك الصرخة حول إبطال قانون السببية العام ، التي نسمع منها كثيراً حين نأبى أن نقبل ذلك النوع من السببية ، الذي يقدمه لنا بعض المدارس ، كقيلة بأن تجعل المرء يفقد ما عنده من صبر . ألا يتصور هؤلاء الكتاب حالات أخرى ؟ أليس لديهم من حد وسط بين المعجزة والبيئة الطبيعية ؟

إذا كان ألان يقصد « بالحالات المادية » تلك الدائرة المحسوسة من الطبيعة ومن الإنسان ، فإن حكمه يكون خطأ من ناحية فربولوجية ، لأن عقاية الجماعة تغير من نفسها كلما وجد بينها أحد النوابع ، بفعل بعض الأسباب التي تؤثر في الجزء غير المرئي من الدائرة الذرية . ولكن إذا عني بها « كل الطبيعة » ، فإن حكمه ، على الرغم من صحته ، لا يكون إلا مثل الاعتقاد الغامض في قدر وقضاء شامل ، الذي لا ينبغي أن يأخذ به شخص مثقف أو عالم .

(١) مقال (Nation Making) في مجلة (Gentleman) ١٧٧٨ .

(٢) مقال (Helas) في مجلة (Gentleman) ١٨٧٨ .

وكيف يخفق عالم مثل الآن ، ولا يفرق في هذه الناحية بين الشرط الضرورى لإنتاج النتيجة وبين الشرط الذى يكفى لإنتاجها ؟ يقول المثل الفرنسى إذا أردت عمل العجة فلا بد من أن تكسر البيض ، يعنى أن كسر البيض شرط ضرورى لعمل العجة . ولكن هل هو شرط كاف ؟ هل تظهر العجة عند ما نكسر ثلاث بيضات أو أربعمنها ؟ هكذا الشأن بالنسبة للعقلية اليونانية . فقد يكون الاتصال التجارى بالعالم الخارجى ، الذى سببه مركز هيلاس الجغرافى ، شرطا ضروريا فى تكوين تلك العقلية البعثة . ولكن إذا كان مع ذلك شرطا كافيا ، فلماذا لم يسبق الفينيقيون اليونان فى العقلية ؟ لا يمكن أن تنتج البيئة الجغرافية نوعا معينا من العقلية . وليس للبيئة الجغرافية من أثر إلا فى تربية ما وجد فعلا من العقلات وتغذيتها ، أو فى عوقها وإفسادها ، فليست عملياتها إلا عملية انتقاء واختيار ، ولا تحدد ماسيوجد من الأنواع إلا بإبادة ما لا يصلح منها . فعادات الإهمال والكسل ، مثلا ، لا تتناسب مع البيئات الشمالية ؛ ولكن هل يجمع سكان هذه المناطق بين عاداتهم من حسن التدبير وبين هدوء الأسكيمو (Eskimo) ، أو بينها وبين ميول نورسمان (Norsman) نحو الخصام والحروب ، فذلك ، فيما يتعلق بالقطر الجغرافى ، أمر عرضى . ولا بد لأرباب مذهب التطور من تذكر أن لنا خمسا من الأصابع ، لا لأن أربعا منها أوستا كانت لا تؤدى الفرض ، ولكن لأنه اتفق أن أول حيوان فقرى أعلى من السمك كان له ذلك العدد من الأصابع . إنه ، فى نجاحه فى تكوين سلسلة متصلة من النسب ، مدين لبعض صفات أخرى ، - لاندري ماهى - ، ولكنه احتفظ بأصابعه الخمس حتى اليوم . وهكذا الشأن بالنسبة لكثير من الصفات الاجتماعية . وأما ماهى تلك الصفات ، التى سوف تستدعيها الصفات الضرورية لبقاء البيئة ثم تستبقيها ، فذلك يرجع إلى العوارض الفزيولوجية التى سوف يتفق حصولها بين الأفراد . ويعيد الآن بأنه سيبرهن على نظريته بأمثلة

مستقاة من الصين ، والهند ، وانجلترا ، وروما ، وغيرها . ولكنى لأشك في أنه سوف لا يفعل مع هذه الأمثلة أكثر مما فعله مع هياس . إنه سيظهر في الميدان بعد وجود الحادثات فعلا ، ويقول إن الصفات التي احتفظ بها كل شعب كانت منسجمة مع عاداته . ولكنه سيخفق بلا مرأ في تبين أن كل حالة من حالات الانسجام المنتجا إليها كانت هي الحالة الضرورية والهيئة الممكنة لذلك الشعب .

يذكر علماء الطبيعة تمام الإدراك أن الانسجام بين الحيوانات الإقليمية وما تعيش فيه من بيئات غير محدود ولا معين . فقد يصلح الحيوان من فرص وجوده بواحد من طرق شتى ، - فقد ينمو مائياً ، وقد يعمرش الأشجار ، أو يقطن تحت الأرض ؛ وقد يكون صغير الحجم سريع الحركة ، أو بطيئاً بديناً ؛ وقد يكون ذا فقرات شوكية ، أو ذاقرون ؛ وقد يكون مخاطياً ، أو ساماً ؛ وقد يكون خجلاً هلوفاً ، أو شرساً مفترساً ؛ وقد يكون داهية أو خصباً في الإنتاج ؛ وقد يكون محباً للاجتماع ألوا ، أو ميالاً للوحدة والعزلة ؛ وقد يكون على أنحاء أخرى بجانب هذه ، - وقد يناسبه كل واحد من هذه في بيئات متخالفة كل التخالف .

ولا شك أن قراء والاس يتذكرون أمثلة واضحة من هذا القبيل في كتابه المسمى « أرخبيل الملايا » Malay Archipelago ، حين يقول : -

« لا تشبه بورنيو غينيا الجديدة في كبر الحجم والخلو من البراكين فحسب ، ولكن تشبهها أيضا في التمدد في طبيعتها الجغرافية ، وفي عدم التقلب في جوها ، وفي المظهر العام لخضروات الغابات التي تغطي وجهها ؛ وأما ملقا فهي صنو الفيليبين في طبيعتها البركانية ، وفي خصوبتها ، وفي غاباتها الجميلة ، وفي زلازلها المتكررة ؛ وأما بالي مع الجانب الشرقي من جاوه فلها جوجاف وتربة قاحلة مثل جو تيمور وترتها . ولكن يقطن بين تلك المجموعات من الجزر المتشابهة المبنية ، كما يبدو ، على طراز

واحد ، والخاضعة لجو واحد ، والمسورة بمحيط واحد ، أنواع متباينة من الحيوانات . ولذا لا نجد النظرية القديمة التي تقول « ليست الخلافات أو المشابهات بين الأنواع المختلفة من الحياة إلا نتيجة للمفارقات أو المشابهات بين البيئات التي توجد فيها هذه الأنواع المختلفة من الحياة » ، ما ينقضها في مكان ما مثل الذي تجده هنا . فبورينو وغينيا الجديدة متشابهتان جغرافياً ومادياً كما يمكن أن يتشابه أى إقليمين متميزين ، ولكنهما ، على الرغم من ذلك ، متباينتان من ناحية الحيوانات كما يتفارق القطبان ؛ بينما نجد أن أستراليا ، مع رياحها الجافة وسهولها الفسيحة ، وصحراواتها الصخرية ، وجوها المعتدل ، تنتج طيوراً وحيوانات تشبه هاته التي توجد في الغابات الخصبية ، الحارة الرطبة التي تغطي سهول غينيا الجديدة وجبالها .

هنا نجد بيئات جغرافية متشابهة منسجمة مع حياة أنواع شتى من الحيوانات ، ونجد أنواعاً متشابهة من الحياة الحيوانية منسجمة مع بيئات جغرافية متخالفة . ولقد دعم هذه الدعوى أحد الكتاب النابيين Gryzanowski بذكر مثل من سردينيا وكورسيكا ، فقال ^(١) :

« هاتان الأختان ، الواقعتان وسط الأبيض المتوسط ، وعلى بعد واحد من مراكز الثقافة اللاتينية حديثها وقديمها ، واللذان كان يمكنهما الاتصال بسهولة مع البلاد الفينيقية ، والإغريقية ، والشرقية ، واللذان لهما ساحل ذو منافع جمة يجاوز طوله ألفاً من الأميال ، والمحتويتان على ثروات زراعية ومعدنية طائلة لم تكن يوماً ما بالمجهولة أو بالنسية في الثلاثين قرناً الماضية من التاريخ الأوروبي - هاتان الأختان لهما لهجات لا لغات ، وحكايات لمعارك لا تاريخ ، ولهما عادات لا قوانين ؛ وتوجد

فيهما عادات الأخذ بالثأر لانظام العدالة . وهما ذواتا حاجات وثروات، ولكن ليست لهما تجارة ؛ فهما أخشاب ومراق ، ولكن ليست لهما ملاحاة أو بواخر . هناك قصص خرافية ، ولكن ليس هناك شعر ؛ وهناك جمال لا فن ؛ وكان يمكن القول من عشرين عاما مضت بأن هناك جامعات ولكن ليس هناك طلاب ... ومن الغريب أن سردينيا ، مع ما لها من قوة وجدانية ومن بدائية عجيبة ، لم تبرز فناانا ما ، كما أن البدائية نفسها غريبة فيها أيضا ... وعلى الرغم من شدة قربهما من المدينة الأوروبية، ومن وجودهما في المكان الذي كان يمكن أن يعتبره الجغرافى الأول أنسب الأمكنة لكل من التقدم المادى والعقلى ، والتجارى والسياسى ، فقد نامت هاتان الجزيرتان وحدهما نوعا عميقا على صوت لوحة التاريخ .

يقارن ذلك الكاتب بعد ذلك بين سردينيا وصقلية ، ويذكر بعض التفاصيل فيقول : تمتاز سردينيا بكل الفضائل المادية ، « وكان ينتظر من سكان سردينيا أن يكونوا أكثر تطورا من سكان صقلية ، من حيث إنهم انحدروا من سلالات متعددة أكثر من تلك التى انحدر منها الشعب الإنجليزى » ، ولكن تاريخ صقلية الماضى تاريخ مجيد ، وتجاريتها اليوم عظيمة . وللدكتور Gryzanowski نظريته التى تشرح سبب بلادة سكان تلك الجزر الممتازة . إنه يظن أن جمودها ناشئ عن أنها لم تكن يوما ذات حرية سياسية ، لأنها كانت دائما خاضعة لبعض القوى الأوروبية . سوف لا أمارى الآن فى نظريته هذه ؛ ولكننى أسأل فقط لماذا لم ينالوا تلك الحرية ؟ والجواب المباشر هو : لأنه لم يوجد فيها من الأفراد من هو ذو عصبية وطنية وقدرة كافية على أن يشمل فى قلوب الأفراد الحمية الوطنية والرغبة القوية فى حياة مستقلة . قد يكون أهل هذه البلاد - كورسيكا وصقلية - مثل من جاورهم من ناحية الصلاحية المادية ، ولكن لا تحترق خير مجموعة من الخشب حتى توضع عليها النار،

ولم يوجد بعد المشعل المناسب الذى يلهب هؤلاء القوم .

يظهر العظماء المتفرقون فى كل مكان . ولكن لابد للجماعة من جمع من النوابغ الذين يظهرون معاً ، أو فى فترات متوالية ، إذا ما قدر لها أن تظل فى حياة قوية فعالة . وهذا هو السبب فى أن العصور العظيمة قليلة فى التاريخ ، وفى أن الازدهار المفاجئ للأغريق وللروم القديمة ، وعصر النهضة ، كان سرّاً من الأسرار الغامضة . فلا بد أن تتبع الضربة بأخرى ، فلا يكون هناك فراغ تبرد فيه الحرارة . وعندئذ تشتمل الجماعة حرارة ، وتستمر مشتعلة بذاتها فترة طويلة من الزمن حتى بعد أن يموت مشعل الحركة . وكثيراً ما نسمع الناس يعجبون من تلك الظاهرة: وهى أن هذه العصور العليا فى الحياة الإنسانية لا تجعل الناس أكثر قوة وحيوية فحسب، ولكنها توجد كثيراً من النبغاء أيضاً . ذلك حقاً سر غامض . وهو من العمق مثل السؤال المشهور « لماذا تمر كبار الأنهار بالمدن الكبرى » . ومن الحق أن يقال إن الثورات توقظ كثيراً من النوابغ ، الذين كانوا لا يجدون فرصة للظهور إذا ما كانوا فى عصر خامل فاتر . ولكن لابد مع هذا من أن يوجد جمع من النوابغ قبيل العصر ليوجد تلك الثورات . وإن احتمال وجود هذا الحشد من النوابغ أكثر ندرة من احتمال وجود أى فرد من النوابغ ؛ ومن هنا كانت عصور الثورات والاضطرابات نادرة ، وكانت المظاهر الاستثنائية التى تلبسها هذه العصور نادرة أيضاً .

إنه من الحماقة ، إذن ، أن نتحدث عن « قوانين التاريخ » كأنها شئ موجود بالضرورة يحاول العلم أن يكتشفه ، ويتمكن كل امرئ من التنبأ به ، وإن كان غير قادر على تغييره أو تجنبه . ذلك لأن قوانين الطبيعة نفسها شرطية ، ومتملة بالفرضيات . فلا يقول عالم الطبيعة « سيفلى الماء على أى حال » ، ولكنه يقول سيفلى إذا ما وضع على النار . وكل ما يمكن أن يقوله باحث اجتماعى هو إذا ظهر نابغة وأبان

الطريق المستقيم فإن الجماعة تتبعه . ولا شك أنه كان من الممكن التنبؤ من مدة طويلة مضت بأن كلا من ألمانيا وإيطاليا قد يُكوّن وحدة مستقرة إذا ما نجح أحد الأفراد في بدء الحركة . ولكنه كان من غير الممكن التنبؤ بالكيفية التي ستأخذها هذه الوحدة: أمي خضوع لسلطان دولة، أم نظام تحالف ، لأنه لم يكن هناك من المؤرخين من يمكنه أن يحسب حساباً لفلتات الطبيعة من ولادة وحظ ، مثل هذه التي وضعت سلطة عليا في وقت واحد في أيدي أفراد مثل نابليون الثالث، ويسمارك، وكافور (Cavour) ^(١) . وهكذا الشأن بالنسبة لسياستنا . إذ أنه من المؤكد الآن أن حركة الأحرار والمصلحين سوف تنتصر . ولكن لا يقدر المؤرخ أن يقول ما هو الشكل الذي سيتخذه هذا الانتصار ، هل سيكون بجمل الجمهوريين يعترفون هذا المبدأ ، أو بتكوين حزب جديد على أنقاض الحزبين الموجودين . وليس هناك من شك في أن حركة الإصلاح يمكن أن تنمو في عام واحد تحت قيادة صالحة أكثر من نمائها في عشر سنوات من غير تلك القيادة . فإذا كان هناك زعيم عظيم متصف بكل المواهب الإقليمية ، فلا شك في أنه سيقودنا إلى النصر . ولكننا في الوقت الحاضر ، ونحن بيئته ، نحن الذين نتحسر لفقده ، ونحتضنه ونحافظ عليه إذا ما جاء ، لا نقدر أن نخطو خطوة واحدة من غيره ولا أن نفعل شيئاً إيجابياً نتوجهه ^(٢) .

(١) هو ذلك السياسي الإيطالي الذي عاش في القرن التاسع عشر ، وكان عضواً في مجلس نواب سردينيا عام ١٨٤٨ ، واختير بعد ذلك بعامين وزيراً للزراعة . وفي عام ١٨٥٢ عين رئيساً للوزارة ؛ وهو الذي أرسل جنوداً من سردينيا إلى شبه جزيرة القرم ؛ وبهذا اكتسب صداقة فرنسا وانجلترا . ولما وقعت الحرب بين النمسا وسردينيا عام ١٨٥٩ ، كان النصر حليفه بمساعدة فرنسا . وكانت معاهدة الصلح بعد ذلك خطوة مهمة في سبيل توحيد إيطاليا .

(٢) بعد أن كتب هذا الموضوع ، ظهر الرئيس Cleveland مشعباً لحد ما من تلك الرغبة . ولكن ليس هناك من شك في أنه إذا ما كان متصفا ببعض صفات أخرى بالإضافة إلى ما هو متصف به ، فإنه كان يكون أكبر أثراً مما هو عليه الآن .

والنتيجة هي أن مذهب التطور في التاريخ ، عند ما ينكر الأهمية العظمى للابتكارات الفردية ، يكون مذهبا مبهما وغير علمي ، ويكون انتقالا من التجربة العلمية الحديثة إلى التجربة الشرقية القديمة . والثمره التي نجتني من هذا التحليل السابق (حتى على الفرضية الجبرية الكاملة التي بدأنا بها) هي بعث همم الأفراد وقواهم لينهضوا . وإن المقاومة العنيفة ضد كل تغير التي يثيرها المتمسكون بالقديم ، والتي لا يأمل الفرد المصلح أن يتغلب عليها كلية ، لتجد نفسها ما يبررها . إذ أنها تجعله يؤخر الحركة قليلا ، ويميل بها هذا الجانب أو ذاك بسبب ما يبيده المعاندون من استعداد للقبول ؛ وذلك يعطيها قوة وحيوية . وباختصار ، إن المقاومة تجعله يضغط على الحركة وينعطف بها عمن الناحية التي كانت قد تتجه إليها لو تركت وحدها، أو شملها؛ وذلك يهذبها ويصقلها .

ولأنتقل الآن إلى آخر مرحلة من مراحل موضوعي ، وهي أثر البيئة في التطور العقلي ؛ ويحق لي الآن أن أتحدث باختصار بعد أن وفيت الموضوع شرحا . قد يبدو لأول وهلة أن المدرسة ، التي ترى أن العقل قابل منفعل وأن البيئة هي العنصر الفعال الذي يوجد شكل إدراكه ونظمها ، على حق ؛ وأعني بذلك المدرسة التي ترى أن كل تقدم عقلي ناشئ عن سلسلة من التغيرات المسكيفة بالمعنى الذي شرح آنفا . وتجد تلك المدرسة كثيرا يشهد لها . فنحن نعلم جميعا أن مقداراً كبيراً من مخزوناتنا العقلية ليس إلا تجارب متذكّرة، وليس مسائل مبرهنا عليها . ومن تلك التجارب كل عاداتنا ومعلوماتنا التي يرتبط بعضها ببعض بسبب المجاورة . ومنها أيضا تلك النظريات الذهنية التي تعلمناها في الصغر مع اللغات التي ولدنا فيها . وعلاوة على كل ذلك ، فهناك من الأسباب ما يجعلنا نظن أن نظام « الروابط الخارجية » الذي يجربه الأفراد، هو الذي يحدد النظام الذي يلاحظ العقل على منواله الصفات المتضمنة ويستخلصها . وإن السرور والمصالح ، التي يسببها جزء من البيئة ، والمضار والآلام ،

التي يسببها جزء آخر منها ، تحدد كذلك من اتجاه الانتباه ؛ وعلى هذا الأساس تتكون النقطة التي نبدأ عندها في جمع تجاربنا العقلية . فقد يستنتج من كل هذا أنه ليس هناك من فاعل في تلك الناحية غير ذلك الفاعل ، وهو البيئة ؛ وكأن التفرقة بين « الاختلافات الذاتية » ، التي توجد الصور المختلفة ، وبين « البيئة » التي تحافظ على تلك الصور أو تهلكها ، التي وجدناها في الماضي نافعة ، لا أساس لها بمسائل التطور العقلي . أو بعبارة أخرى ، كأنه ليس هناك من تشابه بين هذه المسائل وبين نظرية دارون ، وكأن سبنسر بقانونه حول العقل كان على حق في قوله « يرتبط الانسجام بين الحالات العقلية بالتكرار الذي تقع به في الخارج الحوادث المادية التي تعلقت بها الحالات العقلية » .

ولكن ، على الرغم من كل هذا ، فإني لا أزال متمسكا هنا أيضاً بتفرقة دارون . فإني أعتقد أن المسائل المتحدث عنها هنا مأخوذة كلها من أدنى طبقة من طبقات العقل ، ومن أقل دوائره تطوراً ، أو من الدائرة العقلية التي يشارك الحيوان فيها الإنسان . ويمكنني بسهولة أن أنقض قوانين سبنسر كلها في مراحل العقل العليا ، التي هي من خصائص الإنسان ؛ ويمكنني أن أبين أيضاً أن النظريات الجديدة ، والميول الفعالة والمواطف التي يمكن أن تتطور ، نشأت كلها في الأصل مصادفة في شكل خيالات وأوهام ونتائج عرضية للاختلافات الذاتية في عمليات المخ الإنساني الذي ليس له من قرار . ومهمة البيئة الخارجية ، بعد ذلك ، بالنسبة لها ، هو أن تؤكد لها أو تنفيها ، وتحافظ عليها أو تهلكها ، وباختصار ، تتخير منها كما تتخير من الاختلافات الاجتماعية والمورفولوجية الناشئة عن ذرات عرضية من أنواع مشابهة .

من الحقائق المعروفة أن العقول الإنسانية الساذجة عقول حرفية . فتخضع للعادات ولا تفعل إلا ما علمته من غير أن تغير فيه أو تبدل . وهي جافة غليظة

في ملاحظاتها، وتشير دائماً إلى الحقائق الواقعية ؛ ولا تعرف من المزاج إلا النوع الجاف منه الذي يسر المزاج العملي ؛ وتأخذ العالم قضية مسلمة . ولها مع ذلك مواهب من الإخلاص والوفاء تثير منا إعجاباً واحتراماً في كثير من الأوقات . ولكنه يبدو إخلاصاً من غير عضوى ، وكأنه صفة لقطعة ممتدة من المادة ، وليس نتيجة لإرادة الإنسان . فإذا ما نزلنا إلى عالم الحيوان زادت تلك الطواهر كماً وكيفاً . وكل من قرأ شوبنهاور (Schopenhauer) لا يمكنه أن ينسى إشاراته المتكررة لشدة إخلاص الكلاب والخيول واستقامتها ونصحها . وكل من لاحظها لا بد أن يدرك أنها حرفية ساذجة ذات عمليات آلية محضة .

ولكن أرجع إلى أعلى المراحل العقلية ، وستجد خلافاً كبيراً . فبدل التفكير في المحسوسات ، وفي تبعية بعضها لبعض في طريق معبد بما تقترحه العادات ، تجد فكراً متعارضة في آن واحد وانتقالاً سريعاً من واحدة لأخرى ؛ وتجد أعلى نوع من التجريد والتمييز ؛ وتجد تركيباً من عناصر مختلفة لم يسبق به علم ؛ وتجد أدق نوع من أنواع الربط الناشئ عن قياس التمثيل ؛ وباختصار ، نجد أنفسنا كأننا قد ألقينا في قدر من الأفكار يغلي ، حيث يهتز كل ما فيه ويثور ويضطرب هنا وهناك في حالة محيرة من الحركة ، توجد الزمالة فيها ثم تنقطع في لحظة ، ولا يوجد فيها عمل آلى ، بل يخيل إليك أن القانون فيها هو غير المنتظر . والذي يحدد صفات هذه الومضات هو ما عليه مزاج المرء من حالات : فتارة تكون مُلحة من ملح العقل والمزاج ؛ وتارة تكون وميضاً من شعر وفصاحة ؛ وتكون ، تارة أخرى ، عملاً من قصص تمثيلية ، أو من براعة ميكانيكية ، أو تجريداً منطقياً أو فلسفياً ؛ وتارة تكون مشروعات عملية أو فروضاً علمية ، مع سلسلة من النتائج العملية المترتبة عليها ؛ أو تكون نغمات موسيقية ، أو صوراً لجمال بارع فتان ، أو إدراكاً لانسجام خلقى . ولكن ، على

الرغم من اختلافها ، فإنها تتفق في أن أصولها كلها مفاجئة ، وكأنها نسبية ، بمعنى أن نفس المقدمات قد لا تؤدي ، بالنسبة لفرد آخر ، إلى نفس النتائج ؛ ولو أن ذلك الآخر قد يقبل النتيجة ويسر لها ، حين تقدم له ، ويغبط هذا الذي وصل إليها أولا على صفاء ذهنه وحدة قريحته .

يُعتبر الأستاذ جيفون (Jevons) أول من أكد أن النبوغ في الإكتشاف يتوقف على عدد من هذه الفكر المصادفية والحدسيات التي تأتي في عقل الباحث^(١) . وشرطه الأول الحصوبة والغنى بالفرضيات ، وشرطه الثاني هو الاستعداد لإهمال تلك الفرضيات ، وتركها حين تناقضها التجارب . فنظام باكون (Bacon) من ترتيب المثل ومقارنتها بنظام له أثره وثمرته في بعض الأحيان . ولكن لا يقدر العقل على أن يدرك قوانين مجموعة من الحقائق من مجرد مواجهته بها ، إلا كما يقدر كتاب الشخص السكيماي على أن يكتب بنفسه اسم الشخص المريض ، أو كما يقدر التقويم الجوى على أن يفتبأ بنفسه بالاحتمالات المستقبلية . إن إدراك القوانين يرجع إلى الاختلافات الذاتية بكل ما في الكلمة من معنى ؛ إنه يبرق من أحد العقول دون سواها ، لأن توازن ذلك العقل يكون بحيث يدفع من نفسه ويرفعها نحو ذلك الاتجاه الخاص . ولكن الذي تنبغى ملاحظته هو أن البريق الصالح وغير الصالح ، وأن الفروض المنتصرة ، والتصورات الهزلية ، تستوى كلها من حيث النشأة . فلقد نشأ كل من منطق أرسطو الخالد ومن طبيعياته المضحكة من أصل واحد ، أي أن القوى التي أوجدت أحدهما هي التي أوجدت الآخر . وقد أبتسم لما يجول بنفسى من خواطر عجيبة عند ما أكون ماشيا مفكرا في زرقاء السماء الصافية ، أو في جمال جو الربيع . وقد يقع في روعي

حل لمشكلة لم تحل من قبل ولم تجل بخاطري وقت المشي . كلا الأمرين ينبع من مصدر واحد ، - من المخزن العقلي الذي لم يكن شيء من إبراز الصور الذهنية في علاقتها بالاستمرار الخارجى أو بالتكرار متحكما فيه الآن . ولكن عندما توجد الفكرة بالفعل ، فقد يأتى بعد ذلك انسجامها مع العلاقات الخارجية ، اللهم إلا إذا كانت خيالا باطلا ، وعندئذ تموت فى لحظة ثم تنسى . فإذا ما جاءنى فرض علمى فإنه يشير عندى رغبة حادة فى البرهنة عليه : فأقرأ ، وأكتب ، وأجرب ، وأستشير الخبراء . وإذا ما ثبتت نظريتى ، وتناقضتها الألسن والكتب والمجلات ، أصبحت لى القداسة من الناحية الطبيعية . وعندئذ تحافظ البيئة على تلك النظرية ، التى لم تقدر على أن توجد على يدى فرد أقل طبيعة من طبيعتى .

ولكن ذلك التغير النفسى للعقل فى تلك اللحظات المعينة ، والتحول إلى أفكار خاصة وإلى مركبات من تلك الأفكار ، مقابل بيمول نفسية كذلك نحو اتجاهات معينة : منها الميول نحو الفكاهة ، والميول العاطفية ؛ ومنها النغمة الخاصة لكل عقل التى تجعله أكثر قبولا لبعض التجارب دون بعض ، وأكثر انتباها لنوع خاص من التأثيرات ، وأكثر استماعا لنوع خاص من البراهين دون بعض . وهذه الميول كلها نتيجة لفعل قوى النمو الكائنة فى المجموع العصبى ، الذى يجعل العقل صالحا لأن يؤدي وظيفته على نحو خاص ، ولا أثر للبيئة فى ذلك . وهنا ، أيضا ، تستمر عملية الانتقاء فى عملها . وقد تسر النتائج العقلية بما معها من اتجاهات وميول وجدانية الجماعة وقد تفضيها : فتقليد وردورث (Wordworth) ، وتصبح هادئة غير عاطفية ، أو تقليد شوبنهاور وتعلم جمال الكروب والأحزان . فيصبح الميل المقلد مخمرا فى الجماعة ، ويغير من نعمتها . قد يكون ذلك التغيير لها وقد يكون عليها ، من حيث إنه تغير داخلى ، ولا بد له من أن يبارز تلك القوى الانتقائية للبيئة الكبرى . فلما كانت

Languedoc المتمدينة متأثرة بعلماؤها ، وشعرائها ، وأمرائها ، ورجال اللاهوت فيها ، وقعت طعمة لبيئتها الكاثوليكية في حروب Albigenses . ولما قلدت فرنسا عام ١٧٩٢ Marat ومن معه ، انغمست في نوع من الحياة غير مستقر وغير متوازن . ولما تأثرت بروسيا عام ١٨٠٦ بكل من Humboldts و Steins برهنت في شكل بين واضح على أنها منسجمة مع بيئتها عام ١٨٧٢ .

يحاول سبنسر في أغرب فصل له من فصول علم النفس أن يبين أن تطور النظريات الإنسانية يحدث طبقا لنظام ضروري . فهو يرى أنه لا يمكن أن تتطور نظرية ذهنية ، حتى تصل التجارب الخارجية إلى مرحلة معينة من الاختلاف في الصفات ، والتعين ، والانسجام . وما إلى ذلك فيقول :

« وهكذا فإن الإيمان بنظام ثابت لا يتغير ، أو الإيمان بقانون ، عقيدة لا يعرفها الرجل البدائي . . . إذ أن تجاربه لا تعطيه إلا مقداراً ضئيلاً من الجزئيات الدالة على الاطراد في نوايس الطبيعة . . . والتأثرات اليومية التي تأتي الرجل البدائي لا تكون إلا فكرة ناقصة ، وفي حالات قلائل . فغالبا ما يحيط به من موضوعات ، - من الأشجار ، والحجارة ، ومن الجبال ، ومواطن الماء ، ومن السحب وغيرها ، يختلف بعضه عن بعض اختلافاً بينا ، . . . وقليل منه يتشابه بحيث يصعب التمييز فيه بين الأفراد . وحيوانات النوع الواحد نفسها ، حيها وميتها ، يندر أن تبدوا له على شكل واحد أو تبدوا ذوات ميول واحدة . . . وأما معرفة المتقابلات التي تسمح له بإدراك المتفارقات والمتماثلات فلا تأتي إلا مع التطور التدريجي للفنون . وحياة الرجل البدائي خالية أيضا من التجارب التي تستلزم إدراك الاطراد في تعاقب الحوادث . فلا يبدو له أي اطراد في الحوادث المتعاقبة التي يشاهدها من يوم ليوم ومن ساعة لساعة ؛ ولكن التفارق بينها يبدو له واضحا جليا . . . فإذا نظرنا إلى الحياة البدائية

كشئىء كلى ، فإننا نلاحظ أنها أميل إلى القول بعدم الإطاراد فى الحوادث منها إلى القول بالإطاراد فيها ، ولا يمكن أن تتضح فكرة الإطاراد إلا عند ما توجد الفنون فكرة المعايير ... والشروط التى قدمتها لنا المدنية فجملت فكرة الإطاراد واضحة لنا هى التى جعلتنا ندرك معنى الدقة فى الملاحظة وفى العمل ... ومن هذا يتبين أنه ليس للرجل البدائى إلا قليل من التجارب التى تربي عنده الشعور بما نسميه حقاً أو صدقاً. وإن ارتباط كل هذا بالشعور الذى تربيه الدربة على الفنون لواضح فى كل مكان، وتشير إليه اللغات نفسها: فنتحدث عن سطوح حقة كما نتحدث عن عبارات حقة . وكما أن الكمال فى الأشكال الميكانيكية يوصف بالدقة ، فكذا نتائج العمليات الحسابية .

كل ما يريده كتاب سبنسر هذا هو أن يبين الكيفية ، التى يكيف فيها العقل، المفروض أنه منفعل ، بتجاربه للعلاقات الخارجية . ولقد اعتبرت المعايير فى هذا الفصل ، من الياردة والميزان ، والكرونوميتر ، والآلات والأجهزة الأخرى ، من العلاقات الخارجية بالنسبة للعقل . حقاً ، إنها كذلك بعد أن صنعت ؛ لأن البيئة الاجتماعية احتفظت بها ، ولكنها ليست كذلك باعتبار الأصل . كما أن النظم الأخرى ليست كلها إلا أثرأ لمقلية أحد النابضين ، وليست أثرأ للبيئة الاجتماعية . فإذا ما عسكت بها الجماعة وأصبحت ميراثاً لها ، فإنها تكون باعثاً لنبتاء آخرين على أن يخترعوا ويكتشفوا ؛ وهكذا تدور حركة التقدم وتدوم . ولكن خذ النوابع من البيئة أوغير من فطرتهم وجيلتهم، ثم انظر، فهل ترى أن البيئة تظهر كثيراً من الإطاراد فى التقدم؟ إننى أتحدى سبنسر ومريديه أن يجيبوا .

والحقيقة ، التى لا مرأى فيها ، هى أن « فلسفة التطور » ليست إلا عقيدة ميتافيزيقية . إنها اتجاه وجدانى وحالة خاصة من حالات الشعور ، وليست نظاماً

تفكيريا . إنها حالة قديمة قدم العالم ، فلا يبطلها إبطال رأى فرد من أنصارها ، مثل
فلسفة سبنسر ؛ إنها ذلك الأسلوب الجبرى القديم مع إدراكه البديهي « للواحد
واللـكل » ، الذى كان أبداً ، ويكون أبداً ، وسيكون كذلك ، والذى تصدر عنه جميع الأشياء .
لست محاولاً هنا الاستخفاف بذلك الأسلوب القوى القديم من التفكير فى العالم . إذ
أنه أسلوب لا شأن لما نسميه الآن بالـكتشفات العلمية به ، فلا يقدر أن يوجد ولا
يقدر أن يعدمه ، على الرغم من أن روحه قد لا تنسجم مع الاختلافات الطبيعية التى
يجمعها العلم . إنه يسخر من الاختلافات الطبيعية التى يبنى عليها العلم . وذلك لأنه
يستمد قوته الحيوية من دائرة مباينة لتلك الدائرة التى يثوى فيها العلم . ولكن الناقد ،
الذى يعجز عن هدم العقيدة الميتافيزيقية ، يقدر ، على الأقل ، أن يحتج عليها بسبب
إخفاؤها نفسها وتدثرها بالثوب العلمى . وإننى ، أخيراً ، أعتقد أن هؤلاء الذين تابعونى
حتى الآن فى البحث ، يوافقوننى على أن التاريخ يكذب فلسفة سبنسر فى التطور
الإجتماعى والعقلى تكذيباً مطلقاً ؛ ويوافقوننى أيضاً على أنها عود إلى الأفكار التى
كانت موجودة قبل دارون . كما أن فلسفته فى القوة تزيل كل تفرقة سابقة بين
الكامن والفعل من الطاقة والقوة والكتلة وغيرها ، وهى تفرقة لم يصل إليها علماء
الطبيعة إلا بعد جهد شديد ؛ وترجمنا ، ثانية ، إلى ما قبل عصر غاليلو .